معالم الفسطاط والروضة

الجامع العتيق

قلنا إنه لما فتح عمرو بن العاص مصر، اختط الفسطاط وأنشأ بها سنة ٢١هـ - (٦٤١ - ٤٢) أول جامع شيد فى وادى النيل، فعلى أية صورة كان؟

بنى عمرو جامعه بطول ٢٠ ذراعًا وعرض ٣٠ ذراعًا وفرش أرضه بالحصباء، وسقفه بسقف من الجريد والطين حمل على سواريات من جذوع النخل دون أن يجعل له صحنًا ولا أمامه رحبة، كما أنه لم يجعل به مئذنة ولا محرابًا مجوفًا ولا منبرًا. وفتح للجامع بابان فى كل من جوانبه الثلاثة الشرقى والبحرى والغربى. ثم شيد عمرو لنفسه دارًا شرقى الجامع سميت «دار عمرو الكبرى» تجاورها من بحريها، دار ثانية لابنه عبد الله سميت «دار عمرو الصغرى، ثم دار ثالثة بناها للزبير بن العوام، وأحيط الجامع من جهاته الأربع بطرق.

ولما قدم مسلمة بن مخلد واليًا على مصر سنة ٤٧هـ (٦٦٧م) من قبل معاوية وسع الجامع سنة ٥٣هـ (٦٧٢ - ٧٣) من الجهة البحرية وجعل أمامة رحبة من هذه الناحية وبيضه وزخرفه وفرش أرضه بالحصر، ثم بنى أربع صوامع فوق أركانه الأربعة، وقد قيل أنه نقش اسمه عليها وجعل الوصول إليها من مراق خارج الجامع، فكانت تلك الصوامع نواة للمآذن فى مصر.

ولما ولى مصر عبد العزيز بن مروان من قبل أخيه الخليفة عبد الملك، هدم الجامع سنة ٧٩هـ (٦٩٨م) ووسعه من الناحية الغربية، وأدخل فيه الرحبة التى أنشأها مسلمة، وقيل أنه زاد فيه من جوانبه الأربعة. وفى سنة ٨٩هـ (٧٠٧ - ٨) أمر الوالى عبد العزيز بتعلية سقفه.

وفى سنة ٩٠هـ (٧٠٨ - ٩) قدم مصر الأمير قرة بن شريك واليًا عليها من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، فهدم الجامع فى أول سنة ٩٢هـ (٧١٠ - ١١) وأعاد بناءه (٧١١) وفرغ منه فى رمضان ٩٣هـ (٧١٢) ووسعه من الجهة القبلية ومن الجهة الشرقية وأحدث فيه محرابًا مجوفًا ونصب فيه منبرًا خشبيًا جديدًا سنة ٩٤هـ (٧١٢ - ١٣) - كما أنه أحدث فيه مقصورة تقليدًا لمعاوية بالجامع الأموى بدمشق، وحينذاك صار للجامع أربعة أبواب فى جداره الشرقى ومثلها فى جداره الغربى وثلاثة فى الجدار البحرى.

ولما جاء صالح بن على واليًا على مصر من قبل العباسيين، زاد فى جامع عمرو سنة ١٣٣هـ (٧٥٠ - ٥١) أربعة أساطين، وعمر هذا الأمير جزءًا من مؤخر الجامع، وفتح بابًا جديدًا بالجدار الشرقى.

وفى سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م زاد فيه موسى بن عيسى أمير مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد من الناحية البحرية.

وفى ولاية عبد الله بن طاهر (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) وسع الجامع بأن أضاف إلى أرض الجامع مثلها من الجهة الغربية. ويمكن تصور زيادة ابن طاهر برسم خط مار بمركز دوران «المحراب» الكبير الحالى ومنتصف فتحة الباب الأوسط المقابلة له بالوجهة البحرية، فهذا الخط يقسم الجامع إلى عهد موسى بن

عيسى، والغربى هو زيادة ابن طاهر التى كانت فى خاتمة الزيادات[1] وكانت هذه الزيادة أخطر عمل أجرى بالجامع من الناحيتين الأثرية والمعمارية فقد أصبحت مساحة الجامع ١١٢,٥٠ × ١٢٠,٥٠م.

وفى صفر سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م التهم حريق وقع فى الجامع أكثر زيادة عبد الله بن طاهر، فأمر خمارويه بن طولون بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفى، فتمت هذه العمارة فى السنة ذاتها وزوقت أكثر عمد الجامع.

وفى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م كانت أولى عمارة الفاطميين بالجامع، فقد أمر الخليفة العزيز بالله وزيره أبا الفرج يعقوب بن كلس بعمل فوارة تحت قبة بيت المال وإقامة السقائف الخشبية المحيطة بها على يد «المقدسى الأطروشى» كما عمل منبر جديد.

وفى شعبان سنة ٤٠٦هـ (١٠١٦م) أمر الحاكم بأمر الله بإضافة رواقين يقتطعان من صحن الجامع، والواقع أن هذين الرواقين كانا موجودين إلا أن أعمدتهما كانت من الخشب، فأمر بنزعها والاستعاضة عنها بعمد من الرخام.

وفى عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) بنيت المئذنة التى بين مئذنة عرفة وبين المئذنة الكبيرة التى حلت محلها الآن القبة القائمة فوق ما يسمى ضريح عبد الله بن عمرو. وقد هدمت هذه المئذنة. أما مئذنة عرفة فكانت قائمة على الطرف الغربى لجدار المحراب.

وفى أثناء غزوة الصليبيين لمصر (١١٦٨ - ٦٩) عسكروا جنوب الفسطاط، فخشى شاور أن يحتلوها، فحرقها وأصيب الجامع بضرر كبير.

---

(١) محمود أحمد، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، ص ١٠.

ولما تولى السلطـان صلاح الدين الأيـوبى ملك مصـر (١١٧٢ - ٧٣) جـدد صدر الجامع والمحراب الكبـير ورخمه ورسم عليه اسمـه وجدد بياض الجامع وأزال شعثه وجلا عمده وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشًا بالرخام.

والظاهر أن عمارة صلاح الدين كانت آثارهـا باقية إلى حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى، فقد جـاء فى رحلة البلوى «لخالد بن عيسى بن أحمد ابن إبراهيـم المغـربى» التى بـدأها سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥ - ٣٦) وأتمهـا سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩ - ٤٠م) أنه زار مصر[١] ووصف جامع عمرو بقوله:

«كنت أتردد بها إلى المسجـد العتيق الحافل الذى بناه عـمرو بن العاص رضى الله عنه وإليه ينسب اليوم، فأرى جامعًا منيـرًا ومسجدًا كبيرًا له صحن فسـيح وأسوار حـافلة، وتعاصـير من العـود وتواريخ مكتوبة بالخـط الحافل المذهب كثيرة ومنها ما كان مكتوبًا على المحراب»[٢].

وأهم الإصلاحات التى جرت فى الجامع بعد أيام الأيوبيين هى:

١ - عمارة السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٦هـ (١٢٦٨م).

٢ - عمارة السلطان المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م).

٣ - عمارة سلامة نائب السلطنة فى سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢ - ٣م).

٤ - عمارة علاء الدين نائب دار العدل.

٥ - عمارة الصاحب تاج الدين بن حنا.

---

(١) تاج المفرق فى تحلية علماء الشرق (مخطوط).

(٢) محمود أحمد: المصدر السابق ذكره، ص ٣٠.

٦ - عمـارة الرئيس برهان الدين رئيس التـجار بمصـر فى سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١ - ٢م).

٧ - عمارة السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٦هـ (١٤١٧١م).

٨ - عمارة الأمير مراد بك سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م.

٩ - وفى سنة ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م. أجرى ديوان الأوقاف عمارة كبرى بالجامع، فـجدد السقف للإيوان القـبلى وبعض الإيوانات الأخرى وأقيمت جدرانه وفرشت أرضه بالبلاط.

١٠ - وفى عـام ١٩٣٠م، أصلحت لجنة حـفظ الآثار العربيـة الإيوان الكبير إصـلاحًا شاملاً وقامت بتقويـة جدران الأجزاء الأخرى من الجامع.

***

مقياس النيل بالروضة

يقع بجنوبى جزيرة الروضة، وقد أنشىء فى عـهد الخليفة المتوكل على الله جعـفر العبـاسى (٢٤٧هـ - ٨٦١م) وأشرف على بنائه محـمد بن كثـير الفرغانى المهندس، ثم أصلحه الأمـير أحمد بن طولون (٢٥٩هـ - ٨٧٢م)، وفى أيام الفاطميين عمر بدر الجـمالى بناء المقياس (٤٨٥هـ - ١٠٩٢م) وبنى غربيه جامعًا سماه «جامع المـقياس»، ثم أقام السلطان الظاهر بيبرس قبة على البئر، ويعزى إلى السلطان قايتباى إصلاح أساسه وبعض أماكنه.

وأهم الإصلاحات كانت تلك التى قامت بها مصلحة المبانى ولجنة حفظ الآثار العربيـة فى عام ١٩٢٥م وذلك على أثر حدوث هبوط فى العـمود وقد

تم هذا الإصلاح على خير وجه كما أقيم غطاء هرمى الشكل للمقياس من الخارج. ويتكون هذا المقياس من عمود رخامى مدرج يتوسط بئرًا مربعة من الحجر، مساحتها ٦,٢٠ مترًا مربعًا وبها درج يوصل إلى قاع البئر، يجرى حول حوائطه الداخلية، ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاث فتحات تجرى بالقرب من القاع وهى على شكل عقود مدببة ترتكز على عمد متصلة ذا تيةان ونقشت على جدران البئر من الداخل وفوق عقوده آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفى، ولاعمود المدرج عليه كتابات بالخط الكوفى وأعلاه دوِّن عليه رقم تسع عشرة ذراعًا، وقطاع العمود مثمن، وثبت فى وسط البئر بواسطة عقدين يرتكزان على حوائط البئر من الداخل. والمعروف أن هذا المقياس لا يستخدم حاليًا لقياس الفيضان.

***

كتائس الفسطاط وأديرتها

قبل أيام الفتح العربى، ازدهرت الكنائس فى منطقة الفسطاط، ولعل كنيسة المعلقة كانت أهمها، وهى معلقة على قمة البرجين الجنوبيين من أبراج حصن بابليون وعلى ارتفاع ١٣ مترًا فوق سطح الأرض الأصلية له ولم يزل جزء منها وبه المعمودية بأعلى أحد البرجين القائمين على جانبى الباب القبلى الذى عرف باسم باب الحديد.

شيدت الكنيسة المعلقة فى القرن الرابع، على ما ترجحه معظم المراجع، وكانت متسعة ولكنها صغرت لكثرة ما أدخل عليها من التعديل، ويرجع إلى نخلة الباراتى (١٨٩٠م) الفضل فى المحافظة على كثير مما كان بها من الأيقونات والأحجبة والمنبر الرخامى.

وللمعلقة شهـرة منذ القدم فقد كانت مركزًا لابروشيـة بابليون منذ عهد البطريرك بـنيـامين سنة ٦١٧م إلى عـهـد البطريـرك يوسـاب سنة ٨٢٣م ثم أصبحت مـقرًا للكرسى البطريركى منذ أن قرر أنبا خـريستودولوس البطريرك السادس والستون نقل مقر البطريركيـة القبطية من الإسكندرية إلى مدينة مصر سنة ١٠٣٩م. وكـان أول من أقام بهـا صلاة القداس. وظلـت المعلقة مـقرًا للكرسى البطريركى إلى أن نقل منهـا إلى كنيسة أبى السيـفين فى القرن الرابع عشـر. وبهـا الآن بدائع رائعة من الأيقـونات التى يرجع أقدمـها إلى الـقرن الخامس عشر وأغلبها مؤرخ فى سنة ١٧٧٧م. ويلاحظ أنه كتب على حجاب معـمودية المعلقة اسم المعلـم عبيد أبـو خزام وتاريخ سنة ١٤٩٣هـ (١٧٧٧م) للشهداء مع دعوات أخرى.

وتعتبر كنيسة المعلقة أهم الكنائـس القبطية جمالاً وفنًا، يتمثل ذلك فى أبوابها المطعـمة بالعاج والأبنوس وفى هيـاكلها الخشـبية وفى صورها البـديعة وفى منبرها الرخامى.

***

كنيسة أبى سرجة

تقع بجوار المتحف القبطى ويجمع المؤرخون على أنها شيدت فى المكان الذى قامت به الأسرة المـقدسة لما هربت إلى مصر من وجـه هيرودوس ملك اليهود. أنشـئت فى أواخر القرن الرابع أو فى أوائل الخامس باسم سـرجيوس وداخس، وهما جـنديان استشـهدا بجـهة الرصـافة بسورية فـى أوائل القرن الرابع.

وهذه الكنيسة لا تقل أهمية من الوجهتين التاريخية والفنية عن الكنيسة المعلقة وكانت أولى كنائس مصر بعد دير أبى مقار، يقيم بها البطاركة القداس بعد تكريزهم فى الإسكندرية وقد تهدمت فى القرن العاشر وأعاد بناءها هى وكنيسة الست بربارة «يوحنا بن الايح». وتقع هياكل الكنيسة فى القسم الشرقى وبأسفله المغارة وحجاب الهيكل القبلى مطعم بالسن والعاج. أما الحجاب الذى يفصل الكنيسة عن الهيكل الأوسط فيرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر وهو مطعم بالعاج وعليه نقوش جميلة وبه خمس قطع بها نقوش بارزة، ثلاث منها على اليمين تمثل: الأمير تادرس، مار جرجس والقديس ديمتريوسى، واثنتان على اليسار تمثلان ميلاد المسيح ومعجزة الخبز والسمك ويرجع تاريخ هذه القطعة إلى القرن العاشر. وبصحن الكنيسة منبر رخامى يقوم على عشرة عمد وقد جدد حديثًا وكان قبله منبر خشبى نقلت بقاياه إلى المتحف القبطى.

***

كنيسة الست بربارة

تقع بالقرب من كنيسة أبى سرجة والمتحف القبطى وقد تأسست فى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس وكرست باسم الست بربارة ابنة ديفوروس أحد أغنياء مدينة نيكوميديا بآسيا الصغرى وقد اعتقنت المسيحية على يد العلامة أوريجانس المصرى فى أوائل القرن الثالث الميلادى وكان والدها وثنيًا فعابت عليه عبادته للأوثان فغضب عليها وقتلها.

وكانت تعد هذه الكنيسة من أجمل كنائس القبط بمصر وقد تهدمت فى القرن العاشر وأعاد بناءها وكنيسة أبى سرجة «يوحنا بن الايح» وقد عثر على